

العمارة الكولونيالية في الجزائر بين النزعة الاستعمارية والنزعة الفنية الجمالية مدينة مستغانم نموذجا

Colonial architecture in Algeria, between colonialism and aesthetic artistic tendency

طالب الدكتوراه. صحراوي صالح Doctorant. Sahraoui Saleh s.sahraoui@univ-chlef.dz	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف- الجزائر
أ.د. ميسوم ميلود Prof. Missoum Miloud miloudmissoum02@yahoo.fr	تاريخ حديث ومعاصر	جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف- الجزائر
DOI :		

الإرسال: 2021/04/26 القبول: 2021/07/01 النشر: 2021/07/04

ملخص

أقدمت السلطات الاستعمارية في الجزائر على تطبيق سياسة استعمارية شملت مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، والتي تمثلت ملامح هذه الأخيرة في إنشاء العديد من التجمعات العمرانية، التي أخذت في بدايتها شكل مراكز استيطانية ثم تطورت مع مرور الوقت إلى أن أخذت ملامح مدن كبيرة ذات طابع عمراني ومعماري كولونيالي ومؤدية العديد من الوظائف السياسية والإدارية والاقتصادية وغيرها، ونحن في هذه الدراسة نحاول تسليط الضوء على العلاقة بين العمارة الكولونيالية والنزعة الاستعمارية أثناء تشييد وبناء المدن في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية مركزين على مدينة مستغانم كنموذج.

كلمات مفتاحية: العمارة الكولونيالية؛ المدن الجديدة؛ السياسة العمرانية الفرنسية؛ النزعة الجمالية؛ مدينة مستغانم.

Abstract:

The colonial authorities in Algeria emplacement a colonial policy that included various political, social and urban spheres. the features of the latter were represented in the establishment of many urban communities that initially took the form of settlement centers and then developed over time until they took on the features of large cities of an urban, architectural and colonial nature, performing many political, administrative, economic and other functions.

In this study we are trying to shed light on the relationship between colonial architecture and colonialism during the construction and building of cities in Algeria during the colonial period, focusing on the city of Mostaganam as a model

Keywords: Colonial architecture; New cities; French urban policy; Aesthetic tendency; Mosataganem city

مقدمة

تعتبر السياسة العمرانية الفرنسية في الجزائر من أبرز ملامح المشروع الاستعماري في الجزائر، إذ بل ما تزال العديد من الشواهد والمعالم الأثرية والعمرانية شاهدة على تلك الحقبة من تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، فمدينة الجزائر العاصمة وهران وقسنطينة كلها مدن نماذج بارزة عن السياسة العمرانية في الجزائر.

لقد أحدثت السياسة الاستعمارية العمرانية في الجزائر تحولا جذريا في النسيج العمراني الجزائري المستمد عمرانته وعماراته من الطراز الإسلامي الأمازيغي الأندلسي والعثماني، ليحل محله نمط عمراني دخيل يستمد ملامحه من النمط الأوروبي، الذي امتزجت فيه الروح الجمالية الغربية مع النزعة الاستعمارية، فما قامت به سلطات الاستعمار من تدمير وتخريب للمدن الجزائرية الموروثة عن الحقبة العثمانية دليل على النزعة الاستعمارية التي أرادت فرنسا الاستعمارية تطبيقها في الجزائر، إضافة إلى ما حملته الهندسة المعمارية الكولونيالية من رسومات للصليب وأشكال التثليث دليل قاطع كذلك على امتزاج الروح الصليبية بالنزعة الاستعمارية في تأسيس المدن في الجزائر.

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على العلاقة بين النزعة الفنية الجمالية والنزعة الاستعمارية في العمران الفرنسي في الجزائر، وقد أخذنا مدينة مستغانم كنموذج على سبيل التمثيل لا الحصر للإجابة عن هذه الإشكالية

1- مظاهر الحياة العمرانية في الجزائر خلال العهد الاستعماري 1-1- تعريف المدينة الكولونيالية

يعرف BENEVOLO - المدينة الكولونيالية - la ville colonial بأنها: "عبارة مجموعة من الشوارع المستقيمة التي تشبه لوحة الشطرنج، تتشكل من تجمعات سكنية مربعة الشكل داخل وسط المدينة، منفتحة على ساحة واسعة التي تشرف على أهم المنشآت كالكنيسة، دار البلدية، مساكن التجار والمعمّرين الأكثر ثراء. (léonardo, 1994p12)

1-2- تأسيس المدن الكولونيالية في الجزائر

منذ قدوم الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر واحكام سيطرته على جل المناطق الشمالية من البلاد شرع فريق من المهندسين العسكريين المكلفين بإنشاء المدن الكولونيالية والتي كانت من بين مهام هذا الفريق العسكري إلى جانب مهام أخرى منها

إقامة التّحصينات العسكرية الدّائمة والمؤقّنة وبناء المنشآت والثكنات العسكرية، وتشيّيد المرافق العمومية كالطرق ومشاريع الري، وقنوات الصّرف الصّحي. أسندت مهام إنشاء المدن الكولونيالية والقرى لإيواء المعتمّرين إلى المهندسين العسكريين وذلك لمعرفتهم بطرق البناء وتخطيط المدن نظرا لاطلاعهم بهذا الفنّ خلال مسارتكوبهم العسكري خاصة ما تعلق بالكاستراميتاسون أين يظهر في مخطط المدينة واستقامة الشّوارع واتخاذها مربعة الشّكل (Khadidja, 2010p50)

1-3- بنية المدينة الكولونيالية 3-1-1- المخطط العام للمدينة

إن المدن التي أسستها الإدارة الاستعمارية في الجزائر منذ عام 1830 أخذت شكلا واحدا وهو طابع التّجميع، حيث قام فرق الهندسة العسكرية برسم مخططات المدن على قواعد وأسس دقيقة ومحددة، حيث تستجيب هذه المخططات إلى المتطلّبات التقنية كطول الجادات وعرض الشّوارع وتوزيع المرافق وطبيعة المباني المدنية والعسكرية.

إن الطّابع العام الذي طبع المدينة الجزائرية خلال العهد الاستعماري هو انعكاس للنمط الأوروبي، الذي كان سائدا في أوروبا خلال القرن 19م وقامت الإدارة الاستعمارية بنقله وتطبيقه في الجزائر المستعمرة.

إن من بين الأسس التي اعتمدت في تخطيط المدن الاستعمارية هو طابع التّجميع للوحدات السّكانية وتقريبها من بعضها البعض حتى تشكل تجمعا عمرانيا منتظما. لقد أخذت أغلب المدن الاستعمارية الشّكل الشّطرنجي والذي يتشكّل من محورين رئيسيّين: محور شمالي جنوبي ومحور شرقي غربي، وعند تقاطع هذين المحورين نجد السّاحة المركزية التي تضم العديد من المرافق الأساسية والضّرورية. (Khadidja, 2010p50)

1-3-2- مكونات المدينة الكولونيالية:

تشكل معظم المدن الجزائرية الكولونيالية في أغلب الحالات بمجموعة من العناصر منها السّاحة المركزية، السّور، الأحياء السّكنية، الشّوارع والجادات، المساحات الخضراء كالحدائق والبساتين وأبواب المدينة، والكنيسة وغيرها من المكونات.

* الساحة المركزية:

تتموقع في ملتقى المحورين السالفي الذكر، حيث نجدها تشرف على العديد من المرافق منها فندق المدينة، الكنيسة، السوق المغطاة، قاعة الحفلات، سكنات المعمرين الأثرياء والكبار التجار

أخذت هذه الساحة شكل المربع 200م/140م، يعبرها الشارع الرئيسي الذي يؤدي الى وسطها ويعتبر المهندسون والتقنيون الفرنسيون المختصون في المجال العمراني أن المدينة العثمانية في الجزائر كانت تتميز بعدم الانتظام وفضاءاتها عشوائية. (Khadidja, 2010p61)

* أسوار المدينة:

يلاحظ أن أغلب المدن الاستعمارية في الجزائر قد أحيطت بأسوار أنشئت لعدة أغراض منها:

-الدفاع عن المدينة

-تنسيق وتنظيم المنشآت داخل المدينة

-إعطاء منظر جمالي للمدينة

-أنشئت للفصل بين المدينة والحيّ الخارجي والريف الذي يتصف بعدم انتظام عناصره

-في بعض الحالات لعبت الأسوار دورا للتجوال والتّزه (Khadidja, 2010p70)

* الشوارع:

على محورين رئيسين، محور شمالي جنوبي ومحور شرقي غربي تشكلت معظم المدن الجزائرية خلال العهد الاستعماري، حيث ينتهي كلّ شارع بباب، وعادة ما كان يتراوح عرض الشوارع ب 25مترا غرست على طرفيها أشجار لغرض التظلل والتّجول. (Xavier, 1987P100)

إلى جانب الشوارع الرئيسية وجدت هناك شوارع ثانوية وهي أقل عرضا من الشوارع الرئيسية ووضعت لأغراض أمنية وقد وضعت مقاساتها وفق طريقة Vauban وهي فنّ عسكري بحيث يسمح عرض الشارع بمرور ثلاث عربات. (Félix, 1985P10)

عمل فريق المهندسين العسكريين بغرس الأشجار على حوافّ الشوارع بغية
تلطيف الجو خلف فضاءات للتنزه، وإعطاء مظهر جمالي داخل المدينة.
***الفضاءات الخضراء:**

احتوت المدن الكولونيالية على العديد من المساحات أو الفضاءات الخضراء
كالحدائق والبساتين والمساحات العامة، حيث أخذت هذه الفضاءات النمط الإنجليزي
(استحدث هذا النمط من الحدائق على يد "الفونس"، ويتميز باختلافه عن النمط
الفرنسي في تخطيط الحديقة باعتماد الملمح الطولي المسقي) والذي اشتهر في فرنسا
ومستعمراتها خلال القرن 19 وبداية القرن 20، كما كانت تلعب هذه المساحات
الخضراء والفضاءات دورا هاما كالترفيه والتسلية وكذا تلطيف الجو للسكان.
احتوت المدن في الجزائر على العديد من الحدائق المشهورة والتي تعود الى الفترة
الاستعمارية نذكر منها حديقة لندن ببسكرة، الحديقة العمومية بمدينة قسنطينة،
حديقة التجارب بالحامة بالجزائر العاصمة والحديقة الكبرى العمومية بمدينة وهران
وحديقة الاخضرار بمدينة باتنة وهناك العديد من المساحات والفضاءات العامة في
العديد من المدن.

***البنائات والمرافق العمومية:**

اعتمدت الإدارة الاستعمارية في الجزائر عند استغلالها للأوعية العقارية بغية
إقامة المدن على تقسيم الوعاء العقاري إلى ثلاثة أصناف، حيث يشغل الفضاء الأول
البنائات الجماعية والسكنات الفردية، في حين يشغل الفضاء الثاني المرافق المدنية مثل
فندق المدينة وقاعة الحفلات والكنيسة والسينما... الخ، في حين يشغل الفضاء الأخير
المرافق العسكرية والتي تشيّد على حيّز واسع لتلبية مختلف الاحتياجات الأمنية
والعسكرية.

يلاحظ أن كلّ فضاء من هذه الفضاءات العمرانية له خصائصه العمرانية
والمعمارية والوظيفية داخل المدينة وهي في مجملها تشكّل النسيج العمراني للمدينة في
الجزائر، الذي يختلف اختلافا جوهريا عن النسيج العمراني للمدينة في الجزائر خلال
العهد العثماني، وفي ما يلي توضيح للفضاءات الثلاث:

1- فضاء الإسكان أو الإيواء:

أقدمت الإدارة الاستعمارية على منح تراخيص للملاك الوافدين من فرنسا وأوروبا نحو الجزائر من أجل بناء مساكن فردية، وكان لزاما على هؤلاء المستفيدين من تراخيص البناء التقيّد ببعض المعايير والشروط أثناء تشييدهم لمساكنهم من بينها:
- مراعاة استقامة المباني على طول الشوارع والجادات
- اعتماد مخطط عمراني صحيح وانتقاء الهندسة المعمارية الرّاقية
- استعمال مواد البناء الجيدة
- مراعاة علوّ البناءات حسب المعايير المعتمدة من قبل السلطات العمومية الفرنسية.

2- فضاء التّجهيزات العمومية:

ما يلاحظ على المرافق والتّجهيزات العمومية في المدينة الكولونيالية في الجزائر أنها كانت منفصلة ومحيطة بالفضاءات العامة والمساحات الخضراء، حيث يتمّ تحديد موقع المرفق منذ المراحل الأولى لتأسيس المدينة وفي الغالب كانت تشيّد على المحاور الرّئيسية لوسط المدينة.
كانت مقاسات البنيات العمومية في أغلب الحالات تأخذ 25×60م والتي كانت متشابهة مع سكنات المستوطنين، ومن بين هذه المباني العمومية نجد الكنيسة، فندق المدينة، المحكمة، الدائرة المسرح، السّوق المغطى، قاعة الحفلات، السّجن.....
(Xavier, 1987P120) الخ

3- المباني العسكرية:

تعتبر المباني العسكرية من أول المباني التي قامت سلطات الاحتلال الفرنسي بتشّييدها في الجزائر، فحسب ROCCA " فان هذه المباني أخذت شكلا يختلف عن المباني المدنية السّالفة الذكر سواء التّابعة للإدارة الاستعمارية أو تابعة للمستوطنين، كما أنها شيّدت في مواقع مرتفعة نوعا ما وتحاط بسور كبير يفصلها عن المباني الأخرى ويجمع كلّ الثّكنات التّابعة للمشاة وجيش الخيالة واسطبلاتها، بالإضافة إلى المستشفى العسكري. (Emile, 1930p40).

4-1- الطراز المعماري الكولونيالي في الجزائر:

تعتبر المصادر التي تناولت موضوع الهندسة المعمارية الفرنسية في الجزائر نادرة الأمر الذي يخلق صعوبة لدى الباحثين عند معالجة هذا الموضوع، وعموما يميز الباحثين في هذا الشأن بين أربعة أنماط معمارية ارتبطت بالعمارة الفرنسي في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية والتي ميزت أغلب المدن الجزائرية والتي مازالت بعض ملامحها قائمة إلى اليوم والتي يمكن سيقاها كالآتي:

1- الهندسة المعمارية المعدنية architecture métallique

2- الهندسة المعمارية الكلاسيكية الحديثة architecture néoclassique

3- الهندسة المعمارية الموريسكية الجديدة architecture néo-moresque

4- الهندسة المعمارية الحديثة architecture moderne : (Hélène، 1997)

نلاحظ أن الهندسة المعمارية الكولونيالية في الجزائر قد مرت بتطور تاريخي منذ بداية التعمير الفرنسي إلى الجزائر وإلى غاية الاستقلال، والتي عملت سلطات الإدارة الاستعمارية على تجسيدها في الجزائر من أجل تثبيت الوجود الاستعماري في شقه العمراني وكذا القضاء على العمران المحلي الموروث عن العهد العثماني، إن هذا التطور الحاصل في الهندسة المعمارية في الجزائر كثيرا ما تحكمت فيه المستجدات والتطورات الحاصلة في فرنسا سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية والاقتصادية وفيما يلي تفصيل لتطور الطراز المعماري الكولونيالي في الجزائر.

2- العمارة الكولونيالية في مدينة مستغانم

1-2- التطور التاريخي العمراني للمدينة

عرفت مدينة مستغانم توطنا بشريا منذ العصور الغابرة صاحبه حضور عمراني مازالت المدينة تحتفظ بالعديد من الشواهد والآثار العمرانية، يمكن أن نتبعه على النحو الآتي:

1-1-2- مستغانم خلال العصر الحجري

بيّنت الاكتشافات التي أجريت على مدينة مستغانم، أن هذه الأخيرة كانت عامرة منذ فترة ما قبل التاريخ، حيث استقر بها الإنسان القديم، دلّ على ذلك وجود مواقع يرجع تاريخها إلى فترة العصر الحجري الأول ما بين 30 و3200 ق/م، والعصر الحجري

المتوسط ،ويظهر ذلك في موقع سيدي المجذوب وموقع الرياح ،كما ان مستوطنات المدينة الأولى ظهرت قبل الألف الثالثة قبل الميلاد ،ومن أهم هذه المستوطنات مستوطنات موقع الشعانية التي وجدت بها أطلال مباني فينيقية ،التي شهدت تطورا على طول وادي الشلف ،تجلى ذلك في موقع كيزال Quizal ،كما دلت الأبحاث على أن المدينة كانت تحتوي على ميناء خلال الفترة الفينيقية (<http://www.sidi.aissa.com.le1/03/2021>)

يقول الأستاذ "فاضل عبد القادر" عن مدينة مستغانم " مدينة ضاربة في أعماق التاريخ وجدت قبل دخول الفينيقيين والرومان ،والمواقع الأثرية التي لا تزال قيد الدراسة ما هي إلا شاهد مادي للإنسان الحجري القديم ،كونها لا تبعد كثيرا عن إنسان "تيغنيف" ،فموقع مستغانم الاستراتيجي جعلها موطناً لأقوام بشرية هاجرت إليها عبر عصور غابرة ،لا تزال شواهد المادية مندثرة تحت الطبقات الحضارية ،فمواقع "خروبة" و"ماسرى" ومواقع تحتاج إلى دراسات أثرية تثرى تاريخ المنطقة القديم ،وترفع الأنقاض عن العناصر البشرية التي عاشت بها ،مثل سكان عين الحنش قرب سطيف وبيرو العاتروإنسان مشقى العربي قرب قسنطينة وإنسان عين الصفراء وغيرها من المواقع السكنية لإنسان العصر الحجري بمراحله (المستغانمي، 1996 ص 16).

2-1-2- مستغانم خلال الفترة الفينيقية والرومانية

لقد كان حوض الشلف الأسفل وخاصة مصبه في البحر المتوسط وعاء للعديد من المخلفات والأثار الشاهدة على تلك الحضارات التي تعاقبت على المنطقة ،منذ نزول الفينيقيين بشمال إفريقيا في الألف الثانية قبل الميلاد ،واحتكاكهم بالسكان الأصليين فمنطقة سيدي بالعطار وعين بودينار والسور وعين تادللس والشعانية ،تحتاج الى المزيد من البحث والتنقيب ،فقبل انحسار الجليد عن اوروبا نحو الشمال ،كانت منطقة شمال إفريقيا تنعم بمناخ مداري رطب ومعتدل ،تخللت المنطقة غابات كثيفة بأدغالها وثروتها الخشبية استغلها البحارة الفينيقيين في صناعة سفنهم ،كما كانت توجد حيوانات مفترسة متوحشة تعيش في هذه الأدغال ،منها الفيلة استعملت انيابها في صناعة العديد من الأدوات "(المستغانمي، 1996 ص 17).

أما محمد الميلي فيقول " وأما مغيلة تقطن بالشاطئ الأيمن من الشلف عند مصبه في البحر، ولهم مدينة تسمى أسان، وقد أثبتت بعض الدراسات وأعمال التنقيب

غير المكتملة وجود بقايا نتاج مادي مثل أطلال صخرية وأواني فخارية ومصابيح زيتية وبعض القطع النقدية، ويعود ازدهار الصناعة الفخارية إلى توفر الموارد البيئية منها الطين والصّصال استعملت لأغراض منزلية كالطّهي وحفظ الثّمار والأسماك وزيت الزّيتون إنها بصمات لإنسان حضارات البحر الأبيض المتوسط. (امبارك، 1983 ص 25) يرى الأستاذ "مرابط عبد القادر، أنه لا وجود لأثار عمرانية فينيقية بسبب حدوث زلزال عنيف وقع في القرنين الثاني ميلادي، حيث أتى على بنايها، لذا تفتقر المدينة إلى الشّواهد المادية الفينيقية، عكس الفترة الرومانية التي مازالت بعض شواهد المادية قائمة إلى اليوم رغم حالة التّلف والتّدهور التي عرفتتها مثل ما هو تمثال تدشين الأسقفية الرومانية سنة 172م (بلجوزي، 2006/2005 ص 18).

3-1-2- مستغانم خلال الفترة الإسلامية

عرفت مستغانم حضور العديد من أشكال السّيطرة خلال الفترة الإسلامية نوجزها على التّحوالاتي:

أ- فترة حكم الأدارسة: (788م-974):

دخلت مستغانم تحت حكم إبراهيم بن محمد بن سليمان في القرن الثّالث الهجري، حيث يصف ابن حوقل المتوفي في 380هـ المنطقة الواقعة بين تنس ووهران بقوله "...ومنها يقصد تنس إلى وهران مراس لا مدن شهيرة..." وربما يدل هذا على أن مدينة مستغانم لم تكن سوى قرية صغيرة (بلجوزي، 2006/2005 ص 19)، وفي النّصف الثّاني من القرن الزّابع الهجري جاءت قبائل هلالية إلى المغرب الأوسط واستقر عدد منها بمدينة مستغانم نذكر منها قبيلة مجاهر. (بلجوزي، 2006/2005 ص 19)

ب- فترة حكم المرابطين: (1056-1147م):

خلال النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجري، بسط المرابطون نفوذهم على المغرب الأوسط، وأصبحت حدود ممتلكاتهم محاذية لدولة بني حمّاد وذلك تحت قيادة يوسف بن تاشفين، الذي فتح في حدود سنة 474هـ/1068م مدينة مستغانم وتنس حيث بنى في مستغانم مركزا حربيا يسمى حصن "المحال" في سنة 1082م، استقرت حوله حامية مرابطية للدّفاع عن المدينة ضدّ الهجمات القادمة من البحر، وكذا احباط الثورات والتمردات الدّاخلية للقبائل المجاورة، وحول هذا الحصن نما وتطور عمران حضري كبير (الجيلالي، 1994 ص 83)

ج- فترة حكم الزيانيين (1235-1557):

نتج عن ضعف دولة الموحيدين في بلاد المغرب الإسلامي، ظهور ثلاث كيانات سياسية متناحرة فيما بينها هي الدولة الزيانية والدولة الحفصية والدولة المرينية، حيث كانت مستغانم منطقة تجاذب بين هاته الدول خاصة الزيانيين والمرينيين، ففي حدود سنة 1280م قامت الدولة الزيانية في تلمسان بضم مستغانم إلى ممتلكاتها، وفي هذه الفترة ظهرت العديد من المنشآت العمرانية بين مدينة الأخضر (الدرب-طبانة) والبحر أين ولدت مدينة تيجديت التي أشار إليها ابن خلدون تحت عنوان "الخبر عن انتزاع الزعيم" (ص100/1988 خلدون) بن مكن ببلد مستغانم

د- فترة حكم المرينيين (1244-1465):

في سنة 1299م استولى السلطان المريني يوسف بن يعقوب على مدينة وهران ومزغران ومستغانم، وفي سنة 1334م أعاد السلطان المريني أبو الحسن استيلائه على وهران وتنس ومستغانم والجزائر، وفي مستغانم قام ببناء الجامع الكبير، الذي يعد أثرا (ص110/1988 خلدون) شاهدا على مرور حكام فاس بمستغانم

4-1-2- التّحرّشات الإسبانية بمدينة مستغانم:

بعد سيطرة الإسبان على كلّ من وهران أرزيو سنة 1509، توجهوا نحو مستغانم حيث اجبروا أعيانها ووجهائها على الاستسلام سنة 1511م، وفي ظل هذه الظروف استطاع الإخوة بربروس من استرجاع مستغانم من السيطرة الإسبانية عام 1517م وهذا ما أشار إليه "مارمول كريخال" حيث قال "استولى الأتراك على مدينة الجزائر، ثم استولوا على مستغانم، وهي مفتاح هذه البلاد، وقد تفتن لهذه الحقيقة" الكونت دي الكوديت" فحاول انتزاعها ثلاث مرات إلى أن لقي حتفه في المرة الأخيرة (بلجوزي، 2006/2005 ص26)

5-1-2- مستغانم خلال العهد العثماني (1517-1830):

عرفت مستغانم حضورا عثمانيا قويا بعد تحريرها من الإسبان، خاصة بعد أن جعلها الباي "بوشلاغم" عاصمة لبابك الغرب 1701-1730، وقد كان إختيار الباي "بوشلاغم" لمدينة مستغانم نظرا لموقعها الاستراتيجي، فهي مدينة ساحلية وقريبة من دار السلطان. (بلجوزي، 2006/2005 ص29)

خضع عمران مدينة مستغانم خلال العهد العثماني إلى التّقسيم الإثني والتّقسيم الاجتماعي، حيث توزعت أحياء المدينة إلى أربعة أقسام.

2-1-6- مستغانم خلال العهد الاستعماري:

في عام 1831م أعطيت الأوامر للقائد إبراهيم بوشناق " لقيادة مستغانم، لكن القبائل المجاورة رفضت الاعتراف بسلطته، لأنه جاء لهب العديد من الممتلكات والمنازل وفي نهاية جويلية 1833م فتحت مستغانم أبوابها أمام القوات الفرنسية، إذ قام " دي ميشال" بإنهاء مهام القائد إبراهيم وإجلاء الجالية التركية إلى وهران وإخلاء حي المطمر من ساكنته.

2-2- النسيج العمراني لمدينة مستغانم خلال العهد العثماني

2-2-1- مركز المدينة

تتكون نواة المدينة أو البلدة من المسجد الكبير والسّوق والحمامات الرئيسية ودار القايد وحولها تقع محلات التّجار ودروب الحرفيين، وفي دائرة ثانية تمتد مساكن الأتراك والكراغلة والجالية اليهودية.

تضمنت المدينة العديد من المعالم والمرافق الرئيسية نسوقها كالآتي:

*مسجد سيدي يحي (الجامع الكبير) ، حيث كانت تقام فيه خطبة الجمعة ، يعود تأسيسه إلى السلطان علي بن سعيد ، الذي أمر ببنائه عام 1341م ، أغلقه الفرنسيون في وجه المصلين بعد دخولهم إلى مستغانم وتمّ فتحه سنة 1865م
*ضريح سيدي بوعجاج وهو مولي صالح عاش إلى بداية الاحتلال الفرنسي ، ومسجده الذي بناه الأعيان (باب البحر)

*المنازل الجميلة التي بناها أشخاص بارزين ، مثل المنزل الذي شيّده : حميدة العبد : قائد المحال والقصر الذي أقامه "الباي محمد الكبير" لقضاء عطلته
يحيط بالبلدة سور مرتفع ، يحتوي على أبراج للمراقبة أهمها: برج المحال" الذي شيّده "الباي مصطفى الأحمر" سنة 1748م ، ويتصل بخارج المدينة بخمسة أبواب: باب الشّلف، باب معسكر، باب وهران، وباب البحر. (بلجوزي، 2006/2005ص31)

2-2-2- المطمر: matmer

تشكل البلدة والمطمر مدينتين واضحتي المعالم، حيث كان لكل منهما سور، ويفصل بينهما وادي عين الصقراء، الذي يخترق مستغانم طولا، حيث تقع البلدة على الضفة الرقي للوادي، بينما تقع المطمر على الضفة الغربية في أعالي المدينة، كما يحيط بالحي سور يعلوه برج الأتراك الذي يجهل تاريخ إنجازه نتقدر مساحته ب 30م2 وبه مخازن واسعة وبئر

2-2-3- أطراف المدينة (تجديدت والعروة tidjdit et aarsa):

يقع تجديدت شمال المدينة ويقطنه العرب، أي العناصر التي انتقلت من الريف للعمل في مطاحن الحبوب وورشات الدباغة وبعض الأشغال المتواضعة، يعرف هذا الحي ببساطة بنياته وطرقه الضيقة والملتوية، تعرض للتخريب من قبل القائد ابراهيم بوشناق، حين التحق سكانه بالمقاومة سنة 1831م، به مسجد مول النخلة وضريح ابراهيم بن عثمان حفيد الباي محمد الكبير.

أما العروة سابقا وسماها الفرنسيون بقرية الليمون، فقد كان حيا جميلا تحيط به غابة من أشجار الفواكه تقع جنوب المدينة، تعرضت للتخريب من قبل الفرنسيين وأقام به فرسان المخزن بقيادة الأغا محمد المزاريق، الذي دخل في خدمة القايد بوشناق في اواخر سنة 1835م

2-2-4- المرسي: elmarsa

قبل تحرير وهران من السيطرة الاسبانية سنة 1792م، كان ميناء مستغانم مركزا هاما لتجارة الغرب الجزائري، لكن نشاطه تقلص وتحول إلى وهران بعد أن أصبحت عاصمة لباليك الغرب إلى غاية 1830، تميزت منشاته بالبساطة، وأصبح غير قادر على استقبال السفن الكبيرة، ويعود ذلك إلى كثرة الرمال به وتعرضه للرياح والزوايع الموسمية (بلجوزي، 2005/2006 ص33)

2-3- تطور النسيج العمراني لمستغانم خلال العهد الاستعماري

2-3-1- مكونات النسيج العمراني لمدينة مستغانم خلال العهد الاستعماري

*وسط المدينة الجديدة

مع تزايد عدد الجاليات الأوروبية المقيمة في مستغانم، أصبح لزاما على سلطات الإدارة الاستعمارية القيام بعمليات توسيع في المدينة، من أجل إنشاء سكنات ومرافق للأوروبيين، حيث اتجه التوسع نحو الجنوب الغربي للمدينة، وشكلت ساحة الجمهورية مركز المدينة.

*الحديقة العمومية:

توجد هذه الحديقة داخل المدينة، قبالة باب معسكر، فهي محدودة من الشمال والشرق بالطريق الوطني الرابط بين الجزائر العاصمة ووهران وفي الجنوب خط السكك الحديدية ومن الغرب قاعة المسرح والعديد من البيوت الجميلة الجديدة

*قاعة المدينة:

تقع قاعة المدينة على ساحة الجمهورية بجانب البناء الذي استبدل ببناء ضخم على الطراز الحديث عام 1927م، وفي هذا يقول البابا يوحنا الثالث والعشرون " انا سعيد بجمال مدينتكم ،وغناكم بوجودكم الخاص يجعلني متفائلا لأنني أرى سكان شمال افريقيا متحدين حول سقوطهم وأعينهم تحولت نحو روما للاستماع إلى صوت عظيم من الكنيسة والبابا " (Abaie, 1999p9)

*المحطة:

في سنة 1879 تلقت الشركة الفرنسية الجزائرية الموافقة لانضمام مستغانم في خط سكة الحديد لنقل البضائع وخدمة الميناء، وبالرغم من بساطة الهندسة المعمارية للمحطة فإنها كانت تسمح للمسافرين بالانتقال إلى الخطوط الرئيسية لسكة الحديد. (Abaie, 1999p15)

*ساحة الجمهورية place de la republique

كانت في قلب المدينة بجوارها، بجوارها قاعة البلدية والكنيسة والمسرح والفنادق وبعض المحلات التجارية التي احتلت مساحة تحت أقواس المساكن الأرستقراطية الجميلة.

يرى الباحث "بورحلة عبد القادر" أن المدينة عرفت تطورا عمرانيا جوهريا خلال الفترة الاستعمارية حيث يقول "إن دخول فرنسا إلى مستغانم غير تماما عمران المدينة ففي 29 جويلية 1833م سلم "القايد إبراهيم" مدينة مستغانم إلى الجنرال "دي ميشال" بعدها بدأت قوات الجيش الفرنسي بتخطيط بنايات المدينة الإسلامية لبناء مدينة جديدة على الطراز العمراني الأوروبي، والتي عرفت نموا وتوسعا سريعا في جميع ميادين الحياة، أما مدينة تيجديت فقد بقيت بعيدة عن حركة التطور العمراني إلى غاية منتصف القرن العشرين أين بدأت تعرف ظهور بعض المرافق العصرية على الطراز الأوروبي (Abaie, 1999p17)

أما الأستاذ "فاضل عبد القادر" فيقول في هذا الصدد "مع الاحتلال الفرنسي لمستغانم دخلت الفرق الهندسية العسكرية الفرنسية بنمط عمراني أوروبي، وقامت بطمس المعالم الإسلامية وتهديمها مثل حص باب الجراد القريب من مقر الدائرة السابقة، وهذا بإصدار مرسوم من طرف السلطات العليا، وعلى إثر مسح طوبوغرافي ودراسة ميدانية للضفة الغربية لوادي عين الصفراء، أين امتدت أحياء فرنسية تطلتها عمارات وكنيسة وشوارع، حيث طغى النمط العمراني الأوروبي على نسيج المدينة، مما أدى بالاستعمار إلى سلب أراضي الجزائريين وإجبارهم على مغادرتها من أجل البناء فيها (Abaie, 1999p17)

2-3-2- الخصائص البصرية والجمالية العمرانية لمدينة مستغانم 2-3-2-1- الخصائص البصرية والجمالية للمدينة

يعتمد فهم الخصائص البصرية والجمالية على دراسة الخصائص العمرانية والمورفولوجية للمدينة بشكل عام والطراز العمراني لها، ومن ثم التكوين البصري للمدينة من حيث العناصر التي تؤثر في تكوين صورة المدينة، والمتمثلة في المسارات والحدود والمناطق والعقد والمعالن المميزة، ومن ثم دراسة التفصيلات والاهتمام بجميع العناصر التي من شأنها أن تضفي المظهر الجميل مع كونها احتياجات ضرورية للمجتمع والبيئة بشكل عام، وتبنى هذه الدراسة على ثلاثة مستويات، حيث يكمن المستوى الأول في دراسة مورفولوجية المدينة بشكل ثنائي الأبعاد من حيث توزيع المساحات والكتل المبنية بالمدينة، أما المستوى الثاني فيهتم بدراسة العوامل المؤثرة في التكوين البصري

للمدينة، أما المستوى الثالث فتكون الدراسة بشكل ثلاثي الأبعاد وذلك لأنها تعالج عناصر ذات مقاييس صغيرة وعلاقة الإنسان بها مباشرة. (بوجمعة، 2008ص9)

أ-الخصائص العمرانية للمدينة

تشمل الخصائص العمرانية العناصر التالية:

*مورفولوجيا المدينة:

يقصد بمورفولوجيا المدينة المظهر العام لها، حيث يتغير من فترة إلى أخرى عبر مراحل تاريخها، حيث تكون لكل مرحلة خصائص تميزها عن غيرها، وتشمل مورفولوجيا المدينة تلك التماذج العمرانية والموروث العمراني وتخطيط المدينة، الذي يعبر عن ثقافة وحضارة السكان، مع الأخذ بعين الاعتبار الشكل الثابت للمدينة، والذي يعتمد على الشكل الطبيعي للأرض، الذي و بناءا عليه يتحدد الشكل العام للمدينة (دائري أو خطي)، بحيث تعطي مظهرا متميزا للمدينة في تلك الفترة، والذي يكون ناتجا عن تفاعل عدة عناصر هي (الديلي، 2002ص157):

+نظام الشوارع التي تم تخطيطها

+أنماط أشكال الأرض (مستطيلة، مربعة)

+نمط الأبنية التي تقام على أرض المدينة من حيث التصميم والفن المعماري

+النسيج الحضري للمدينة

+اختلاف توزيع استعمالات الأرض

ب المباني الحضارية:

تعكس بعض المباني في المدينة مظهرا أو جوهر فريدا يعبر عن حضارة وثقافة السكان في المدينة في تلك الفترة، ويتضمن ذلك من خلال تصميم المدينة وخاصة المدن التي تتمتع بجذور تاريخية وحضارية قديمة وعريقة، لا تكون الطرز المعمارية فيها متكررة، بل مختلفة مما يعكس قيمة عالية لهذه المباني في نفوس السكان من حيث القيمة التاريخية والحضارية لثقافتهم ومعتقداتهم الدينية ومثال على ذلك المساجد والكنائس والاسواق والمدارس والمؤسسات والمساكن وغيرها، ومدينة مستغانم في هذا السياق تزخر بالعديد من المباني التي تعود إلى فترات سابقة للعهد الاستعماري، كما

أنها مازالت تزخر بمورفولوجيا كولونيالية إلى حد السّاعة ،مازالت تشكل جزء من النّسيج العمراني للمدينة الحالية (عبد الله، 1981ص 55)

2-2-3- العناصر البصرية والجمالية للمدينة:

أشارت الباحثة "بال" BALL في وصف الجمال بمصطلح الوجدان، والذي يعدّ الجمال خبرة أي نوع من الفعالية المتداخلة بين المشاهد والبيئة، وتتبنى التسلسل السيكلولوجي لتوضيح الخبرات الإنسانية التي تبدأ بالعالم، فالمتّبه ثم عضواً لإستجابة مجدداً.

واستناداً على ذلك نستطيع فهم الية تسلسل عملية الإدراك البصري والعناصر الجمالية في المدينة في تكوين الصّورة البصرية والجمالية للناس عن المدينة، من خلال تنقلهم في شوارعها وممرّاتها ومشاهدتهم لمبانيها وأزقتها وكل العناصر المكونة لها، فالعناصر الجمالية في المدينة تعني جميع الخصائص التي تساهم بشكل أو بآخر في تكوين البعد الجمالي للمنطقة التي توجد بها إحدى المؤثرات بشكل خاص والمدينة ككل بشكل عام، هذا بالإضافة إلى كونها عناصر مفيدة وضرورية للمجتمع. (العكام، 2001ص 87)

فمقاعد الجلوس مثلاً يكون الهدف من وضعها تأمين مناطق لراحة المشاة في الشّارع مع أن الجهات المسؤولة عنها تهدف إلى تحقيق تكامل في تصميم الشّارع والصّورة البصرية للمنطقة التي توجد بها مقاعد للجلوس ،بل تكون ذات تصاميم جذابة تعكس صورة جمالية مميزة عن المدينة .وتكمّل عناصرها الأخرى ،بحيث يشعر الإنسان بوحدة عناصر المدينة كأنها لوحة فنية واحدة اجتمعت فيها عناصر العمل الفني الناجح ،ومن ناحية أخرى يعتبر الحديث عن الخصائص البصرية والجمالية في المدينة منطلقاً هاماً للحديث عن توزيع الفضاءات الحضرية كونها جزءاً من الصّورة الجمالية والبصرية للمدينة والتي تتضمن ما يلي (العكام، 2001ص 90):

*الفضاءات الحضرية

*وحدة التقسيم

*المقياس الإنساني

*الكتل والأسطح

*مواد البناء

*الإدراك البصري

*عناصر أثاث الشوارع

وانطلاقا مما سبق فمدينة مستغانم من خلال مرفولوجيتها والعناصر العمرانية والمعمارية التي احتوتها خاصة ما يتعلق بالفترة الاستعمارية والتي مازالت العديد من ملامحها واضحة للعيان ،قد اكتسبت الصورة الجمالية التي تؤثر في نفسية الساكنة خاصة السياح الوافدين من خارج المدينة ،فالإدارة الاستعمارية عند تجسيدها للمدن في الجزائر اعتمدت على العديد من المهندسين المعماريين الذين كانوا يتمتعون بحس وذوق عمراني راق ،انعكس على صورة المدن الكولونيالية في الجزائر من بينها مدينة مستغانم.

خاتمة

من خلال دراستنا لموضوع العمارة الكولونيالية في الجزائر عموما ومدينة مستغانم بين النزعة الاستعمارية والصورة الجمالية يمكن أن نسوق بعض الاستنتاجات والتي نوجزها في ما يلي:

- أن الجزائر تتمتع بالعديد من الآثار والشواهد المادية العمرانية والتي تعود إلى أقدم الفترات التاريخية، خاصة التي تعود إلى الفترة الاستعمارية.
- تزرع مدينة مستغانم بالعديد من الشواهد العمرانية والتي تجسد عمق وعراقة المدينة منذ القدم خاصة الفترة الاستعمارية، والتي كانت محل اهتمامنا في الدراسة.
- إن السياسة العمرانية الفرنسية في الجزائر عامة ومدينة مستغانم خاصة كان لها انعكاس سلبي على العمران المحلي، فقد قامت الإدارة الاستعمارية بالقضاء على كل ما هو عربي إسلامي وإقامة نسيج عمراني يتميز بالطابع الأوروبي الدخيل عن المنطقة.
- لقد اتضحت جليا النزعة الاستعمارية البغيضة والمعادية للموروث الجزائري الأصيل عند دخول الفرنسيين إلى الجزائر خاصة في الشق العمراني
- لقد تميزت العمارة الكولونيالية في الجزائر عامة ومدينة مستغانم بطابع جمالي يعكس الصورة الجمالية للمدينة وفق الذوق الأوروبي.

قائمة المراجع

- حسن علي الديلي. (2002). التخطيط الحضري اسس ومفاهيم (الإصدار 1). القاهرة: الدار العلمية للنشر والتوزيع ودار الثقافة للنشر والتوزيع.
- خلف الله بوجمعة. (4 سبتمبر, 2008). اهمية الخصائص والعناصر البصرية والجمالية للمدينة. 4.
- عبد الرحمان ابن خلدون. (1988). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر (المجلد الجزء السابع). (تحقيق خليل شحادة، المترجمون) بيروت: دار الفكر.
- عبد الرحمن الجيلالي. (1994). تاريخ الجزائر العام (المجلد الجزء الثالث). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد القادر بن عيسى المستغاني. (1996). مستغانم واحوازا عبر العصور تاريخيا وثقافيا وفنيا. مستغانم: المطبعة العلوية.
- عبد الله بلجوزي. (2006/2005). دراسة اثرية لنماذج من العمارة العثمانية في مستغانم . الجزائر: قسم الاثار. جامعة الجزائر.
- محمد عبد الله. (1981). تاريخ تخطيط المدن. داروهدان للنشر والطباعة..
- الميلي محمد امبارك. (1983). تاريخ الجزائر في القديم والحديث. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب .
- BENEVOLO léonardo .(1994) .histoire de la ville .Marseille: E.Parenthèse.
- BOFENARA Khadidja .(2010) .le role du génie militaire dans la production des villes coloniales .constantine: université de constantine.
- GUINEMENT Louis Félix .(1985) .Histoire des villes coloniales séminaires d histoire de l amérique colonial .FRANCE: SHAC.
- LOUIS Abaie .(1999) .Mostaganem de ma jeunesse 1935-1962- .Barcelone: l union européen les presses de polrom-Barcelone.
- MALVERTI Xavier .(1987) .villes et colonisation .paris.
- ROCCA Emile .(1930) .Histoire de la ville de sétif . Sétif: imp artistique Emile Rocca.
- VACHER Hélène .(1997) .projection colonial et ville rationalisée . alberg université :département of langages and architecturals stadies.